

جماليات التقديم و التأخير

في ضوء الدرسين النحوي والبلاغي

أ. صالح مرحباوي

- جامعة باتنة -

الملخص

تتناول هذه الدراسة جماليات التقديم والتأخير كما عالجهما درس النحوي العربي، ثم كما عالجهما درس البلاغي العربي، إذ توقفت الدراسة عند أبرز الجوانب الفنية والجمالية التي كشفها النحاة أولا في ثنايا البحث النحوي الذي كان هدفه الأصلي وضع القواعد والضوابط اللغوية إلا أنه لم يغفل هذا البعد الفني، ثم البلاغيون الذين وضعوا الأسس لهذه الظاهرة مستندين إلى البعد الجمالي ومستقصين السياقات التي يتجسد فيها هذا البعد. وقد ركز البحث في هذا الموضوع على آراء أبرز الدارسين لهذه الظاهرة، من النحاة سيوييه وابن جني ومن البلاغيين عبد القاهر الجرجاني، وابن الأثير، والسكاكي.

Abstract:

This study deals with the aesthetic of **anastrophe** (fronting and postponement) as it is dealt with in Arabic grammar studies and Arabic rhetorical studies .The study focuses on the most prominent artistic and aesthetic aspects which were handles, first, by grammarians through grammar research whose essential aim is to set rules and standards, though it did not neglect the artistic dimension. These aspects were, then, explored by rhetoricians, who founded the pillars of the anastrophe phenomenon, relying on the aesthetic dimension and following which reflect this dimension. The study concentrates on the most prominent scholars of this phenomenon such as "Sibawayh" and "Ibn Djenni" in grammar and "Abdulkahir Aljourjani", "Ibn Alathir" and "Assakaki" in rhetoric.

مقدمة :

لقد تناول النحاة واللغويون والبلاغيون ظاهرة (التقديم والتأخير) وأولوها من العناية الشيء الكثير، ولم يتركوا جانباً إلا وقتلوه بحثاً. ولا شك أن ذلك يرجع أولاً لأهمية هذه الظاهرة من الناحية التركيبية للغة في حد ذاتها، وثانياً لما لهذه الظاهرة من أهمية من الجانب الإبداعي بوصف التقديم والتأخير أسلوباً يتيح للمتكلم والمبدع بصورة خاصة إمكانيات كبيرة في التعبير من حيث القوة والجودة الفنية، ومن حيث كثرة الصور والأشكال التي يمكن أن يضع فيها أفكاره وما يريد قوله دون أن يشعر بالضيق الذي غالباً ما تفرضه أنظمة اللغة، وتقف حائلاً دون قيام المبدع بتفجير جميع طاقاته الإبداعية، وتوظيف إمكانياته الإيحائية وبالتالي نجده ينفر منها باحثاً عما يحقق له هذا الهدف، لذلك فهو يجد في التقديم والتأخير خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف.

وقد تناولت في هذه الدراسة آراء أبرز النحاة والبلاغيين العرب في نقطة أساسية وهي على وجه الدقة تلك المسحة الجمالية التي يكتسبها التعبير إذا ما استخدم فيه صاحبه تقنية التقديم والتأخير بغض النظر لما لها من وظائف أخرى كشفت عنها الدراسات النحوية واللغوية والبلاغية.

1/ التقديم و التأخير في ضوء الدرس النحوي:

لقد عالج النحاة موضوع التقديم والتأخير من منظور الصواب والخطأ فأجازوا منه ما لم يؤد إلى غموض في الأداء أو فساد في المعنى ومنعوا ما أدى إلى ذلك، بل وأوجبوا التقديم والتأخير متى لم يتوصل إلى المعنى أو يُؤدَّى إلا به، أو متى كان العدول عنه يلحق ضرراً بالصياغة من قبيل الاضطراب والغموض واللبس... فمتى وُجدت القرينة التي تمنع الخلط واللبس جاز تقديم

أحدهما وتأخير الآخر على حسب الدواعي، وإن لم توجد القرينة وجب تأخير الخبر حتما منعا للالتباس².

ولعل الخوف من اللبس هو الذي حدا بهم إلى التفصيل والدقة في بيان الحالات والمواضع التي يكون فيها التقديم والتأخير جائزا والتي يكون فيها واجبا، وهم يضعون نصب أعينهم مسألة تحرّي الصواب في أداء المعنى واجتناب الخطأ واللبس والغموض "ويجوز تقديمه (يقصد الخبر) إذا لم يحصل بذلك لُبْس أو نحوه"³.

وهذا التفصيل وهذه الدقة في التقسيم يستندان إلى قاعدة استقراء الظاهرة كما وجدت في الاستعمال اللغوي، أو كما أقرها القياس، وغاية ما في الأمر أن هذا التصرف والتغيير في عناصر الجملة ينبغي أن يستند إلى ما سبق ذكره من الضوابط والمعايير كقولهم: "... وغاية القول أنه يجب تقديم الخبر في كل موضع يؤدي فيه تأخيره إلى لبس، أو خفاء في المعنى أو فساد فيه"⁴، أو قولهم: "وإذا كان تقديم الخبر يفهم منه معنى لا يفهم من تأخيره وجب التقديم"⁵.

ومن البديهي أن يكون معيار الصواب والخطأ هو الأساس في بحث ظاهرة التقديم والتأخير - في المراحل الأولى على الأقل - لأن ذلك ينسجم مع طبيعة الدرس النحوي الذي يتوخى رصد الصواب والخطأ في الأداء من خلال استقراء كلام العرب الفصيح والقياس عليه ومن ثَمَّ وضع القواعد المجردة التي تستهدف صيانة اللسان من الوقوع في الزلل.

² / عباس حسن ، النحو الوافي ، ج 1 ، دار المعارف ، ط 3 ، مصر ، (د ت) ص 500
³ / ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، ج 1 ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، ط 20 ، القاهرة ، 1980 ص 227

⁴ / عباس حسن ، النحو الوافي ، ص 506

⁵ / شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، ج 1 ، تح : يحي بشير مصري ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط 1 ، السعودية ، 1996 ، ص 301

ولا شك أن موضوع التقديم والتأخير بوصفه ظاهرة لغوية يسري عليه ما يسري على سائر الموضوعات والظواهر، فاهتم النحاة بوضع القواعد التي تتعلق بهذه الظاهرة، وتمّ رصد الصّور التي يرد عليها التقديم والتأخير أو التي يحتمل أن يرد عليها، ووضعوا الضوابط التي يجب مراعاتها، ورصدت الحالات التي يتقدم فيها المسند سواء أكان خبراً (في الجملة الاسمية) أو فعلاً (في الجملة الفعلية)، والحالات التي يتأخر فيها.

ومن المهم في هذا السياق الإشارة إلى ذلك الاختلاف الذي صاحب عملية التقعيد لظاهرة التقديم والتأخير، وهو أمر مألوف عند النحاة في كل المباحث، إذ كثيراً ما نلّف أكثر من رأي في المسألة الواحدة. وقد تناول النحاة موضوع التقديم والتأخير في إطار التقسيم المعروف للجملة العربية إلى (اسمية) و(فعلية) وفي طرفي الإسناد في كل منهما (المسند والمسند إليه)، واتفقوا على الترتيب الأصلي الذي ترد عليه كل منهما النحوية. ففي الجملة الاسمية يرد المبتدأ أولاً ثم الخبر:

"والأصل في الأخبار أن تؤخرا وجوّزوا التقديم إذ لا ضراً

الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وذلك لأن الخبر وصف في المعنى للمبتدأ، فاستحق التأخير كالوصف...⁶.

وفي الجملة الفعلية يكون الفعل أولاً ثم الفاعل ثم متعلقاته: "الأصل أن يلي الفاعلُ الفعلَ من غير أن يفصل بينه وبين الفعل فاصلاً...والأصل في المفعول أن ينفصل عن الفعل: بأن يتأخر عن الفاعل...⁷".

هذا هو الأصل العام الذي أقرّه النحاة في الجملة العربية بشقيها استناداً إلى استقراءهم لكلام العرب، إلا أن هذا الأصل في ترتيب الجملة ليس صارماً ولا

⁶ / شرح ابن عقيل ، ج 1 ص 227

⁷ / المصدر نفسه، ج 2 ، ص 96

جامدا بحيث يمنع أي مخالفة أو تغيير في هذا الترتيب، بل العكس هو الصحيح، لأن العربية لغة مرنة ولعل مرد ذلك بشكل أساس إلى كونها معربة تعتمد كثيرا في بيان المعنى في الجملة على الحركة الإعرابية وليس على الترتيب، لذلك نجد ظاهرة التقديم والتأخير شائعة جدا مما جعل النحاة يرصدون مواضعها، ويضعون الضوابط التي ترشد إلى الصحيح الفصيح، وتقي من الوقوع في الخطأ.

وهم يقسمون التقديم والتأخير إلى: جائز وواجب؛ فعن الخبر يقولون: "ينقسم الخبر - بالنظر إلى تقديمه على المبتدأ أو تأخيره عنه - إلى ثلاثة أقسام: قسم يجوز فيه التقديم والتأخير، وقسم يجب فيه تأخير الخبر، وقسم يجب فيه تقديم الخبر"⁸. ثم يفصلون في حالات الجواز وفي حالات الوجوب. وعلى الرغم من هذه النظرة النفعية والعملية لقواعد التقديم والتأخير وضباطه إلا أن البعد الجمالي لم يغيب عن هذا الجهد التقعيدي، فقد كان حاضرا إلى حد ما عند الرواد وإن كان أخذ في التناقص إلى أن اختفى عند المتأخرين.

والمقصود **بالبعد الجمالي** أن لا يكون الهدف من تأصيل القاعدة النحوية هو مجرد بيان الصواب في التعبير، بل بيان وجوه الحسن والجودة فيه، والتنبيه إلى مساوئه وخطئه وربما ضعفه. وتفسير اختيار العرب في كلامهم لتعبير دون آخر لهذه الأسباب، وهذا الضرب من الكلام في النحو نجده عند سيبويه، والمبرد، وثعلب... وغيرهم من العلماء الأول: "...فإن سيبويه لم يكن يفرق بين النحو والبلاغة، ولم يكن النحو عنده مجرد النظر في أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء وما فيهما من حركات وسكنات، وإنما النحو عنده يشمل هذا كله، ويشمل أيضا تأليف الجملة ونظمها، وسر تركيبها، وبيان ما فيها من حسن

⁸ / المصدر السابق ، ص 332

أو قبح، ولا شك أن هذا لا يشمل علم النحو فحسب، وإنما يشمل أيضا البلاغة كما نعرفها اليوم"⁹.

فالدرس النحوي في بداياته كان يضع في الحسبان الجانب الجمالي في الجملة؛ إذ أن تقرير القاعدة يراعي الجودة والحسن في العبارة وليس مجرد الصحة. يقول سيبويه في معرض حديثه عن مخالفة الأصل في الكلام وبالتحديد في موضوع التقديم والتأخير مراعاة لأغراض أخرى "فإن قَدِّمْتَ المفعول وأَخَّرْتَ الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدا عبد الله، لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدما، وهو عربيٌّ جيّد كثير..."¹⁰.

فهو يجد ذلك كثيرا في كلام العرب بل ويصفه بأنه عربي جيّد، ثم إنه وفي مواضع كثيرة يربط القاعدة النحوية بمعيار الحسن والقبح؛ ففي كتابه المشهور (الكتاب) كثير من التحليلات التي تتدرج ضمن هذا السياق "وإن قارئه ليستشعر أنه يهتم بحسن الكلام وقبحه لا بمجرد صحته وحسب..."¹¹. والمتمعن في بحوث سيبويه اللغوية يلاحظ أن سيبويه لم يكن همه الأساسي وضع القواعد وضبط المعايير بقدر ما كان يهتم بالاستعمال اللغوي الرفيع الذي يرتضيه الذوق العربي السليم، وبالتالي لم يكن ليُهمَلَ ذلك الجانب الحيوي والممتع في اللغة، مما يؤكد إدراكه لطبيعة اللغة وأنها ليست كائنا جامدا، بل على العكس إنها

⁹ عبد النبي همامي، جمالية تحليل الخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2014، ص

43

¹⁰ / سيبويه، الكتاب، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988،

ص 34

¹¹ / محمد عبد اللطيف حماسة، اللغة وبناء الشعر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2001،

ص 18

مجموعة من الفعاليات يميزها التغير والتنوع بما يفسر عجز القاعدة اللغوية الصارمة عن مواكبة الإبداع، لذلك فقد فطن إلى هذه الحقيقة: " لم يكن سيبويه يرمي إلى تكوين بناء من القواعد، وإنما كان يرمي إلى تقديم ألوان مختلفة من استعمال الكلمة والتركيب، في وصف دقيق لتقلبات الكلمة ومواقع التركيب على أفواه المتكلمين أنفسهم"¹².

فمنطق اللغة وحاجة مستعمل اللغة هما دليل سيبويه في البحث اللغوي لذلك فقد كان دائم الربط بين القاعدة والنص اللغوي موضع الاستشهاد، بل بين القاعدة والإبداع اللغوي ومحاولة الكشف عن أسرارها ولماذا عمد واضع اللغة إلى اختيار هذه الصيغة أو هذا التعبير دون ذاك: "لقد فتح سيبويه بابا كان ينبغي أن يبقى مفتوحا يدل على أن اللغوي لا يتعامل مع ألفاظ يرتبها الفعل أو منطق أرسطو الصوري أو ميتافيزيقا أفلاطون المثالية، وإنما يتعامل مع ألفاظ يرتبها الوجدان حسب حاجة المتكلم ودوافعه وحيله"¹³.

فهذه الرؤية في تقنين اللغة هي رؤية جمالية مفتوحة تتأى بالبحث اللغوي عن الصرامة و الجفاف دون أن تفقده العلمية الواجب توفرها في مثل هذه البحوث، وفي الوقت نفسه تفتح الباب واسعا أمام نشأة علوم وأبحاث تهتم بجمالية الخطاب، لذلك عُدَّ سيبويه بسبب هذه الرؤية وبسبب المسائل التي أثارها واضع الحجر الأساس في بناء البلاغة العربية. يقول تمام حسان: " فأما في دراسة المعاني فقد كان التركيب هو موضوع الدراسة، فتناول البلاغيون أنواع التركيب من إثبات إلى نفي إلى استفهام وهلم جرا، لا على طريقة النحاة من التركيز على الأدوات والمكونات الأخرى ونسبة المعنى إليها، وإنما على طريقة

¹² / السيد فيصل ، جماليات اللغة بين القاعدة و الاستعمال ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، مصر)

د.ت (ص 26

¹³ / المرجع نفسه ، ص 35

النظر في التركيب نفسه من جهة أسلوب وصفه وطرق التعبير به، وما فيه من إيجاز وإطناب ومساواة، وما فيه من فصل ووصل وقصر وتقديم وتأخير، مما اعتبره النحاة - وما أصابوا - خارج مجال اهتمامهم¹⁴.

فملاحظات سيبويه الفنية والأدبية والمؤسّسة على ذوق رفيع وإدراك عميق لأسرار البيان العربي شكلت قاعدة مهمة لنشأة كثير من الأبحاث البلاغية والتي تقوم بشكل أساس على الإحساس الفني والجمالي: "ولسيبويه مواطن كثيرة من كتابه يبرز فيها النكت البلاغية، ويكشف عن بعض الأسرار كحديثه عن الحذف استغناء لعلم المخاطب، ودلالة المقام وتمثيله له بشواهد كثيرة منها قول قيس بن الخطيم:

نحن بما عندنا وأنت بما عنك ذك راضٍ و الرأي مختلف

لقد لعب سيبويه دورا كبيرا في إخراج الكنوز المخفية في الأساليب، وإزاحة الستار عن مظاهر الحسن والخلابة، مما يشهد بجمال لغة العرب¹⁵.

ولعل (الضرورة الشعرية) من أكثر الأبواب التي ظهرت فيها النظرة الجمالية للنحاة، ذلك أنهم اعتبروا الشعر مجالا يجوز فيه للشاعر ما لا يجوز لغيره، بمعنى قد يلجأ لمخالفة الأصل والمألوف من التعابير والقواعد في سبيل استقامة الوزن والقافية والتأليف.

وفي أشهر تعريفات الضرورة أنها ما وقع في الشعر دون النثر سواء أكان للشاعر عنه مندوحة أم لا، وهي في حقيقتها رخص أو إجازات أُعطيت للشعراء ليستقيم لهم الوزن والقافية، ويتحقق لهم جمال الصورة وحسن التأليف فيخالفون بعض القواعد النحوية والصرفية من أجل تحقيق هذه الغاية الفنية،

¹⁴ / تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، (دب ت) ، ص

18

¹⁵ / عبد العزيز عبده ، المعنى و الإعراب عند النحويين ونظرية العامل ، منشورات الكتاب والتوزيع

، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 1982 ، ص 365

وعذر الشعراء في ذلك أن لغة الشعر تختلف عن لغة النثر؛ فالأولى لغة الوجدان وما فيه من انفعالات، والثانية لغة العقل والمنطق، لذلك فإن لغة الانفعالات تتأبى على الخضوع للغة وقواعدها الصارمة، فمداها أبعد وأفقها أوسع، وقد تتبّع بعض القدماء إلى أن الشعراء لهم نوع من الامتياز في التعامل مع اللغة بحكم لغتهم الشعرية وما لها من خصوصية، إلا أن هذا الامتياز لا يعني السماح بالخطأ¹⁶.

ويقول سيبويه في (باب ما يحتمل الشعر): "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام..."¹⁷، ثم يذكر بعض الجوازات إلى أن يصل إلى ما يتعلق بالتقديم والتأخير في عناصر الجملة الفعلية: "و يحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه، لأنه مستقيم ليس فيه نقض، فمن ذلك قوله:

صَدَدَتْ فَأَطُولُ الصَّدودَ وَ قَلَمَا وَصَالَ عَلَى طَوْلِ الصَّدودِ يَطُولُ

وإنما الكلام : وَقَلَّ مَا يَدُومُ وَصَالَ"¹⁸.

فمن خلال هذا النص يتبين أن سيبويه أدرك أن للشاعر وضعاً يختلف فيه عن غيره، وأن للشعر لغة خاصة تختلف عن لغة النثر وبالتالي فإن لها مواصفات معينة، وبلا شك فإن المحافظة على الوزن وسلامة القافية تأتي في مقدمة هذه المواصفات، وهذان العنصران يشكّلان الأساس في البعد الفني للشعر ويصنعان أغلب جمالياته، وبطبيعة الحال فإن النثر الفني والمسجوع منه خاصة يلحق بالشعر لأنه يأخذ من خصائصه، لذلك نرى فيه كما نرى في الشعر قبله

¹⁶ / ينظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008، ص 144

¹⁷ / سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 26

¹⁸ // سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 31

حالات من التقديم والتأخير أملتها الضرورة الفنية: " وألحقوا الكلام المسجوع في ذلك الشعر، لما كانت ضرورة في النثر هي ضرورة النظم"¹⁹.

وينبغي أن نشير إلى أن هذا الموقف من لغة الشعر وما يجوز فيها دون غيرها هو موقف أغلب النحاة مع اختلاف بينهم في الدرجة ... وابن جني على سبيل المثال ينطلق من موقف سيبيويه إلا أنه يضيف عليه إضافة هامة تتعلق في أنه يأخذ بعين الاعتبار قوة التعبير وجماله ، فبعد أن سرد مجموعة من الأمثلة التي تشتمل تقديماً وتأخيراً يعلق "...فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانخرق الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جشمه منه، وإن دلّ من وجه على جورهِ وتعسفه، فإنّه من وجه مؤذن بصياله وتخمطه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته، بل مثله في ذلك عندي مثل مجري الجموح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام، فإنّه وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه مشهود له بشجاعته، وفيض منته..."²⁰.

فهو يرى أن الشاعر لا يرتكب الضرورة عن ضعف أو عجز وإنما يرتكبها إما حراً مختاراً مُدلاً بقوة طبعه، أو أنه يرتكبها غير واع بسبب انثيال المعاني والألفاظ عليه في حالة الإبداع فلا يبالى بما وقع فيه من التجاوزات. وبالتالي فما وقع من ضرورة لا يعني عجز الشاعر أو خطأه، ولعل هذا الأمر من الضرورة يدخل فيما سماه هو في مواضع أخرى (شجاعة العربية)، وينبغي أن لا نغفل عن إدخال رأي ابن جني في الضرورة - والتقديم والتأخير عند بعض العلماء نوع فيها - ضمن آرائه التي تتميز بالأصالة العلمية بالإضافة إلى

¹⁹ / ابن عصفور الاشبيلي ، ضرائر الشعر ، تح: السيد إبراهيم محمد ، دار الأندلس ، ط1، القاهرة ،

1980 ، ص 13

²⁰ / ابن جني ، الخصائص ، ج2 ، تح : محمد علي النجار ، دار الهدى ، بيروت ، (دبت) ، ص

الإحساس الفني والتذوق الجمالي لأساليب اللغة العربية، وقد سُجل له الكثير من اللغات والنكات الأدبية الراقية: " فالنحو عند ابن جني يمتزج بالكثير من أسرار التركيب لتصبح وظيفته أوسع من تلك التي حصرها فيه آخرون"²¹.

والسؤال الذي يطرحه: أي شيء يجعل الشاعر يقدم على مثل هذه الضرورات مع علمه بأنها مخالفة للأصول، ومع قدرته على عدم الوقوع فيها لأنه ليس ضعيف اللغة ولا قاصرا عن اختيار الوجه الفصيح ؟ لا شك أن ذلك هو الغاية الفنية والبعد الجمالي.

ثم نجد نحويا آخر أكثر وضوحا حين يقرر أن الشعر هو موضع ألفت فيه الضرائر "اعلم أن الشعر لما كان كلاما موزونا يخرج الزيادة فيه والنقص منه عن صحة الوزن، ويحيله عن طريق الشعر، أجازت العرب فيه ما لا يجوز في الكلام، اضطروا إلى ذلك أم لم يضطروا إليه، لأنه موضع ألفت في الضرائر"²².

فالضرورة هنا - ومنها التقديم والتأخير - لا تعني بالضرورة اضطراب الشاعر إلى مخالفة قاعدة معينة، بل قد يكون مختارا في ذلك بمعنى أن هذا الاختيار قد يكون لغاية أخرى تقتضيها لغة الشعر غير الوزن والقافية - مع أنهما من لوازمه الثابتة - ثم يورد ابن عصفور نماذج عديدة للتقديم والتأخير، إلا أنه يشير إلى أن هناك صورا منه قبيحة لأن المعنى فيها لا يفهم إلا بعد تدبر طويل، ولذلك لا ينبغي لأحد ارتكابه. والأساس الذي اعتمده في هذا الحكم هو تلك المعايير التي سبق أن تحدثنا عنها ومن أهمها عدم الوقوع في اللبس والغموض.

2/ التقديم والتأخير في الدرس البلاغي:

²¹ / عبد النبي همامي، جمالية تحليل الخطاب، ص 28

²² / ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص 13

لماذا انتقل موضوع التقديم والتأخير من الدرس النحوي إلى الدرس البلاغي؟ وكيف تم ذلك؟ وما هي الزوايا التي من خلالها تم النظر إلى هذا الموضوع؟ وما هي إضافات البلاغيين في هذا الجانب؟

قد يكون السبب الأساسي في انتقال التقديم والتأخير إلى البلاغة أن الأمر لا يتعلق في هذا الموضوع بصحة الكلام وسلامته من حيث الشكل أو من حيث المضمون - وهو ما تمت معالجته من طرف النحاة - بل إن المسألة تتجاوز ذلك إلى حيثيات جمالية وفنية، وإلى ما يعرف بأغراض الكلام ومقاصده وهذا من صميم البحث البلاغي. وينبغي التذكير أن أساس البلاغة العربية نحوي وخاصة قسم (علم المعاني). ذلك أن جذور الدراسات البلاغية موجود في النحو، وكثير من البلاغيين هم نحاة في الأصل أو لهم باع طويل في الدراسات اللغوية عموماً.

إلا أنّ النظرة البلاغية تختلف في جوهرها عن النظرة اللغوية في أن الأولى تركّز على القول المقول فعلاً، في حين أن الثانية تركز على القول الذي يجب أن يقال "ذلك أن علوم اللغة اهتمت في جل مباحثها بما يقال، في حين انصبت بحوث البلاغيين في دراسة الأسلوب عن كيفية ما يقال"²³، ومن هنا اختلفت المعايير، معايير الجودة والرداءة والقوة والضعف والحسن والقبح ... وقد تقدم النظر فيما يستحسنه النحاة وفيما يستهجنونه في موضوع التقديم والتأخير، وتبيّن أنّ معيار الصواب والخطأ عندهم هو الفیصل في المسألة، و إن لم تخل أحكامهم من البعد الجمالي والحسّ الفني، ولعل هذا شكّل بصورة أو أخرى أساساً أو نواة في نشأة علوم البلاغة وتبلور قواعدها وقيمها.

— رأي عبد القاهر الجرجاني

²³/ محمد عبد المطلب ، البلاغة و الأسلوبية ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، 1994 ،

بحث عبد القاهر الجرجاني موضوع التقديم والتأخير في إطار نظريته الشهيرة في (النظم)، والتي جعلها - كما هو معلوم - مصدر كل إبداع وأساس كل إعجاز وسر كل جمال أو حسن في فنون القول شعرا كانت أو نثرا: "ولقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتقدير قدره، والتتويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر للكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابية معناه ما بلغ، ويتهّم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال..."²⁴.

وقد أقام نظريته هذه على توحّي معاني النحو، إذ إنه يرى أن النظم ما هو إلا وضع الكلمات حسب ما يقتضيه النحو وأصوله و قواعده المقررة، وقوانينه الثابتة، ومناهجه المرسومة: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله..."²⁵، فلا فضل ولا مزية لكلام على كلام إلا باستقامة النظم الذي هو احترام قواعد النحو، إلا أن هذا الالتزام بما يمليه النحو كما هو واضح من كلام عبد القاهر لا يعني ذلك المستوى السطحي، بل إن الأمر أكثر عمقا، إذ أنه ينبغي إدراك الفروق الدقيقة في استخدام معاني النحو ومراعاتها أثناء النظم فينظر - مثلا - في وجوه ورود الخبر أو الحال أو الصفة فيستخدم الوجه الملائم لغرضه، والصورة اللاتقة بالمعنى المجنبية لفساده أو تناقضه أو استحالته، وينظر في مواضع الفصل والذكر، والإضمار والإظهار: " فيضع كل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له"²⁶.

²⁴ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5،

2004، ص 80

²⁵ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 81

²⁶ المصدر نفسه، ص 82

وكما نلاحظ في هذه النظرية أن الأمر كله مَنُوط بعلم النحو. فلا صحة لمعنى ولا فضيلة في قول، ولا حسن في نثر، ولا بهاء في شعر إلا ويرجع إلى أن صاحبه قد أدرك ورأى الوجه الصحيح، والوضع السليم الذي ينبغي أن ترد فيه الكلمة في سياق لغوي معيّن. وقد عالج التقديم والتأخير بوصفه آلية نحوية بين آليات كثيرة توظف لإقامة النظم. هذا النظم الذي عُدَّ منبع البلاغة ومصدر الإعجاز، يقول معلقا على أبيات للبحرّي: " فإذا رأيَتها قد رافقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر، وعرف وأنكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله"²⁷.

فالتقديم والتأخير إذاً هو ركن من أركان النظم وحسن التصرف فيه باستخدامه على الوجه الصحيح الذي يحقق المزية والفضل والفخامة التي يتباهى بها البلغاء، و يقدم من أجلها بعضا و يؤخر بعضا، ويحسن كلاما ويُفصح ويستهن آخر: "ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان..."²⁸. يظهر جليا من هذا النص أن سر الجمال والحسن في الشعر معقود في كثير من الأشعار بهذه الآلية النحوية.

وقد سار عبد القاهر على خطا النحاة فأقرّ الغاية التي من أجلها يكون التقديم والتأخير عموما، وهي الاهتمام بأمر المقدّم - كما نصّ على ذلك سيبويه في الكتاب-²⁹ إلا أنه يفصل في هذا الأصل ولا يتركه على عمومه، بل إنّه

²⁷ / المصدر نفسه ، ص 84

²⁸ / الجرجاني ، دلائل الإعجاز المصدر نفسه ص 106

²⁹ / سبقت الإشارة على هذا النص في ما تقدم من البحث

ينتقد النحاة في ذلك: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم وأُخِّرَ للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين تلك العناية ولم كان أهم"³⁰.

كما رفض تقسيم التقديم والتأخير إلى مفيد وآخر غير مفيد، أو أن يكون توسعةً على الشاعر حتى يستقيم له الوزن وتطرد له القافية من غير فائدة في المعنى، بل رأى أن تقديم أي عنصر من عناصر الجملة وتأخير آخر يكون للمتكلم فيه غرض، ولفائدة في الكلام لا تتم إلا به. وقد أورد أمثلة عديدة أثبت فيها أن التقديم والتأخير فيها أمر لا مناص منه وليس حلية أو زينة وجودها أو عدمها سواء، بل إنه إجراء لغوي نحوي يحقق للكلام السلامة والصحة، ثم القوة والفخامة والحسن وما شابه من الألفاظ الدالة على القيم الجمالية المطلوبة في كل كلام فصيح بليغ.

وينبغي أن نلاحظ أن المتكلم بين أمرين لا ثالث لهما في أمر التقديم والتأخير، إما أن يلجأ إليه وعلى وجه معين وصورة محددة فيتحقق المراد من الكلام، وإما أن يُعرض عنه فيقع في الضعف والإسفاف والقبح، فالتقديم والتأخير إذاً ليس إجراء اختياري بل أمر تتطلبه أصول النحو ومقاصد الكلام وسياقاته: "...ذلك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل تارة أخرى. فمتى ثبت في تقديم المفعول - مثلاً - على الفعل في كثير من الكلام أنه اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال..."³¹.

وعلى الرغم من أن عبد القاهر لم يعالج كل صور التقديم والتأخير المنصوص عليها في علم النحو، ولم يأت على بيان الأغراض والمقاصد المختلفة والتي من البديهي أن تتناول في الدرس البلاغي، إلا أنه بيّن الأصل

30 / المصدر نفسه ، ص 108

31 / المصدر نفسه ، ص 110

الذي تقوم عليه جماليات التقديم والتأخير، وهو بناء الجملة أو تشكيل التركيب بوضع اللفظ الموضع الملائم له استنادا إلى الدلالة المفترضة، وذلك - في رأيه - هو ما يحوز الإعجاب والتقدير، ويستحق مرتبة الشرف والسمو في الكلام على ما اجتهد في بيانه من خلال أبواب الكتاب وبالأخص باب التقديم والتأخير.

— رأي ابن الأثير

أما ابن الأثير فقد تناول موضوع التقديم والتأخير في كتابه الشهير (المثل السائر) في القسم الثاني منه، والذي خصصه للصناعة المعنوية، وهي تلك الأدوات أو كما قال عنها الآلات التي لا يستغني عنها الكتاب والشعراء في العناية بالمعاني وتجويدها، بعد أن تحدث عن الصناعة اللفظية وآلاتها.

وقد بحث الموضوع من زاوية فنية جمالية حيث أنه فسّر معظم صورته تفسيراً جمالياً (والتفسير الجمالي هو ما تراعى فيه معايير الفصاحة والبلاغة)، ففي البدء يقسمه إلى ضربين، ضرب يتغير فيه المعنى - إذا أخر المقدم أو قدم المؤخر -، وضرب لا يتغير فيه المعنى لأن التقديم يتعلق بدرجة الذكر.

ثم يقسم الضرب الأول إلى قسمين، الأول يكون فيه التقديم أبلغ، وقسم يكون فيه التأخير أبلغ، ولو تأملنا القسم الثاني لوجدناه يتعلق بما سماه النحاة بالرتبة المحفوظة والتي لا يجوز فيها من حيث الأصل التقديم والتأخير، ولو حصل لكان ذلك مؤدياً إلى اختلال المعنى واضطرابه، لذلك كان اهتمام البلاغيين بالرتبة غير المحفوظة لأنها هي ما يتيح للمتكلم والشاعر حرية التعبير بعكس النحاة الذين اهتموا بالنوعين معاً³².

وابن الأثير نفسه يسميه (المعاطلة المعنوية)، وبالتالي هذا القسم يصبح بلا قيمة أو فائدة، ويخرج من ثم من دائرة البلاغة كما خرج من قبل من دائرة

³² / أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، دت ،

النحو، وإن كان إدراجها لهذا القسم في حد ذاته يؤكد النظرة الجمالية الفنية التي بنظر إليها بهذا الموضوع، فلا يبقى - إذاً - إلا القسم الثاني والذي قال عنه: "فأما القسم الذي يكون التقديم فيه هو الأبلغ كتقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل"³³. ثم صرّح أن هذا القسم يكون لغرضين، أحدهما: الاختصاص، وثانيهما: مراعاة نظم الكلام: "والذي عندي فيه أن يستعمل على وجهين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام، وذلك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم، وإذا أخرج المقدم ذهب ذلك الحسن، وهذا الوجه أبلغ وأؤكد من الاختصاص"³⁴.

وهو في ذلك يخالف بعض أرباب البيان والبلاغة ومنهم الزمخشري الذي يرى أن أغلب صور هذا التقديم إنما تكون للاختصاص، بينما يرى هو هذا التقديم إنما هو مراعاة نظم الكلام، وهنا تبرز القيمة الجمالية لهذه الظاهرة التركيبية بالنسبة لابن الأثير - على الأقل - . ويسوق ليبين هذه القيمة أو بالأحرى الوظيفة الجمالية لهذا النوع من التقديم والتأخير عددا كبيرا من الأمثلة، من ذلك تعليقه على الآية الكريمة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): "وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أن التقديم في هذا الموضع قصد به الاختصاص، وليس كذلك، فإنه لم يقدم المفعول به على الفعل للاختصاص وإنما قدم لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقول: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فجاء بعد ذلك قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وذلك

³³ / ابن الأثير، المثل السائر، ج2، تح: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة دبت، ص 210

³⁴ / ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 211

لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال نعبذك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن..³⁵.

وكذلك تعليقه على الآية: (وَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قلنا لا تخفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى): "...وإنما قدم المفعول على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول بحرف الجر قصدا لتحسين النظم"³⁶.

ومثلها في ذلك تعليقه على الآية: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ): "فإن تقديم الجحيم على التَّصْلِيَةِ وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن هاهنا للاختصاص، وإنما هو للفضيلة السجعية، ولا مرأى في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم"³⁷.

ويورد على هذا النسق من التقديم والذي يتقدم فيه المفعول به على الفعل والفاعل نماذج عديدة يثبت فيها كلها أن التقديم حصل مراعاة لحسن الكلام وليس للاختصاص كما ذهب إلى ذلك كثير من البلاغيين. وكما فعل في بيان السبب الحقيقي في تقديم بعض صور المفعول به، فعلاً في تقديم الظرف. يقول في تعليقه على الآية: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ): "قالتقديم هاهنا ليس للاختصاص، وإنما هو كالذي أشرت إليه في تقديم المفعول، وأنه لم يقدم للاختصاص، وإنما قدم من أجل نظم الكلام، لأن قوله تعالى: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ" أحسن من أن لو قيل: وجوه يومئذ ناضرة ناضرة ناظرة إلى ربها، والفرق بين التَّظْمِينِ ظاهر"³⁸.

ومن النماذج التي أوردها كمثال على تقديم الظرف لغايات تحسين النظم تعليقه على قوله تعالى: "(وَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)، (إلى

35 / المصدر نفسه ، ص 212

36 / المصدر نفسه ص 212

37 / ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص 213

38 / المصدر نفسه ، ص 218

ربك يومئذ المستقر) ،(ألا إلى الله تصير الأمور)، (له الحكم وإليه ترجعون) ،
(عليه توكلت وإليه أنيب)...فإن هذه جميعا لم تقدم الظروف فيها للاختصاص،
و إنما قدمت لمراعاة الحسن في نظم الكلام، فاعرف ذلك³⁹.

وينبغي الرجوع مرة أخرى إلى فكرة المعازلة المعنوية، والتي ذكر أنها
نتيجة للقسم الثاني من الضرب الأول من التقديم والتأخير، والذي يتعلّق بما لا
يصحّ ابتداءً تقديمه كتقديم الصفة على الموصوف، والمضاف إليه على
المضاف...وقد رأى أن في هذا التقديم من القبح والاضطراب ما يستدعي
تخليص الكلام منه، وهذا يؤكد الاعتبار الجمالي الذي تجب مراعاته.
يقول في تعليقه على بعض صور هذا التقديم والتي عدّها من المعازلة:
"والمعازلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح، وهذا البيت المشار إليه من
أقبحها، لأن معانيه قد تداخلت، وركب بعضه بعضا..."⁴⁰. ويرجع ابن الأثير
هذه الظاهرة إلى التكلف، ويذكر في هذا السياق بيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

ويرى أنه مُشوّه وقبيح لأنه جاء معقّداً فاقدا للبيان، سببه التكلف والتصنع وعدم
ترك النفس تسترسل على سجيّتها وطبعها: "واعلم أن هذا الضرب من الكلام هو
ضد الفصاحة، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان، وهذا عارٍ عن هذا
الوصف"⁴¹.

فالقبح الموجود في النماذج التي ذكرها - وغيرها كثير - سببه صورة من
صور التقديم المتكلف والذي لا يجري على سنن اللغة ولا الفطرة الأدبية،
وبالتالي فإن التقديم والتأخير آلية لغوية إذا تمّ توظيفها بطريقة جيدة أدت إلى

39 / المصدر نفسه ، ص 218

40 / المصدر نفسه ، ص 221

41 / ابن الأثير، المثل السائر ، ص 223

نتيجة جيدة وهي إضفاء الحسن والجمال على الكلام، وإذا أُسيءَ توظيفُها أدت إلى الغموض والاضطراب، وهو سبب القبح والرداءة في الكلام ويتناقض تماما مع قيم الفصاحة ومعايير البلاغة.

— رأي السكاكي

أما السكاكي فعلى الرغم من أنه من أعلام البلاغيين العرب ومن أشهر الذين تصدّوا لوضع قواعد البلاغة وأصولها - وقد ظهر ذلك جليا في كتابه (مفتاح العلوم) - إلا أنه لم يهتم كثيرا بالجوانب الفنية والجمالية التي تترتب على هذه القواعد والأصول. فاهتمامه كان منصبا بدرجة شبه كاملة على التقعيد وضبط المسائل، لأنّ الدرس البلاغي قبل السكاكي لم يُضبط ولم يُقنّن، وظلت قضايا البلاغة مشتتة بلا ضوابط معلومة أو حدود مرسومة، وكان الذوق هو الحاكم في هذه القضايا بلا منازع.

ويظهر أن هدف السكاكي من عمله في كتابه مفتاح العلوم هو تقنين البلاغة - كما في العلوم الأخرى - وتأسيس قواعد لها لأغراض علمية وتعليمية لما لاحظ من شيوع الخطأ وتكبّب عن جادة البلاغة، يقول: "واعلم أنّي مهّدْتُ لك في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها، واعترف لك بكمال الحذق في البلاغة أبنائها، ونهجتُ لك مناهج متى سلكتها أخذت بك عن المجمل المتعسف على سواء السبيل... ونصبت لك أعلاما متى انتحيتها أعثرتك على ضوال منشودة... ومثّلتُ لك أمثلة متى حذوت عليها أمّنت العثار في مظان الزلل...⁴²".

وقد تميّز عمله هذا بالدقة والصرامة والتنظيم، مما جعله محطّ الاهتمام بالنسبة للبلاغيين الذين جاءوا بعده، بل إنّ معظمهم سار على نهجه، واستلهم

⁴² / السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1

فكره وروحه. ولعل هذه الخصائص هي ما جعلت بلاغته تبتعد بشكل ما عن الشقّ الفنيّ والجماليّ الذي يشكّل البعد الحقيقيّ للبلاغة وعلومها. يقول شوقي ضيف: "وقد تحوّلت البلاغة في تلخيصه إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم، فهي قوانين وقواعد تخلو من كل ما يتمتع النفس. إذ سلّط عليها المنطق بأصوله ومناهجه الحادة، حتّى في لفظها وأسلوبها الذي لا يحوي أي جمال، وما للجمال والسكّائي؟ إنه بصدد وضع قواعد وقوانين كقوانين النحو ومناهجه..."⁴³.

إلّا أن هذا الحكم يبدو مبالغاً فيه إلى حدّ ما، لأن العلوم وقواعدها ومصطلحاتها ولغتها هذا هو شأنها في الدقة والصرامة، بالإضافة إلى أن عمل السكّائي لم يخلُ من النظرة الجمالية.

يرى السكّائي أن جمال الكلام إنما يتعلق بالبلاغة ومعاييرها، فمتى اتسم بهذه الصفة أخذ هذا الحكم، وفي ذلك يقول: "لما تقرر أن مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال، وعلى لا انطباقه، وجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك، المتفحص عن تفاصيل المزايا التي يقع بها التفاضل...ناظرا بنور عقلك وعين بصيرتك في التصفح لمقتضيات الأحوال في إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة، وصور متنافية، حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة في معرضها..."⁴⁴.

وقد تناول السكّائي موضوع التقديم والتأخير بمنهجه الذي سبق أن أومأت إلى أبرز ملامحه في معرض حديثه عن أحوال المسند والمُسند إليه واعتباراتهما، وبيّن في ثنايا ذلك الأصول التي ينبغي مراعاتها في وضع هذين العنصرين الموضع الذي يستحقّانه تقدّما وتأخيراً. وينبغي الإشارة إلى أن السكّائي لم يخرج في اعتبارات التقديم والتأخير عن اعتبارات النحو التي تراعي بشكل أساسي

⁴³ / شوقي ضيف ، البلاغة تطوّر و تاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط9 ، (دت) ص 288

⁴⁴ / السكّائي ، مفتاح العلوم ، ص 265

مسألة الصحة والخطأ ومجانبة اللبس والغموض إلا في حدود ضيقة وذلك أثناء حديثه عن الأغراض البلاغية كما يظهر في حديثه عن أغراض تقديم المسند إليه ثم المسند.

— أغراض تقديم المسند إليه :

"وأما الحالة التي تقتضي تقديمه على المسند فهي متى كان ذكره أهم...⁴⁵" ، " وإما لأن في تقديمه تشويقا للسامع على الخبر ليتمكن في ذهنه إذا أورده...⁴⁶" ، " وإما لأنه يصلح للتفاؤل فتقدمه للسامع لتسره...⁴⁷" ، " وإما لتوهم أنه لا يزول على خاطر وأنه يستلذ به فهو للذكر أقرب، وإما لأن تقديمه ينبئ عن التعظيم والمقام يقتضي ذلك، وإما لأنه يفيد زيادة تخصيص...⁴⁸" .

— أغراض تقديم المسند :

"...أو لأنه صالح للتفاؤل، أو لأنه أهم عند القائل كما قلت عليه من الرحمن ما يستحقه ... أو أن يكون المراد بتقديمه نوع تشويق على ذكر المسند كقوله :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وحق هذا الاعتبار تطويل الكلام في المسند وإلا لم يحسن ذلك الحسن، وأن يكون المراد بالجملة إفادة التجدد دون الثبوت فيجعل المسند فعلا ويقدم البتة

45 / المصدر نفسه ، ص 291

46 / السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 292

47 / المصدر نفسه، ص 292

48 / المصدر نفسه ، ص 292

على ما يسند إليه...⁴⁹، "... والتخصيص لازم للتقديم، ولذلك تسمع أئمة علم المعاني في معنى (إياك نعبد و إياك نستعين) يقولون نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك، و نخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحدا سواك"⁵⁰، "وتسمعهم في قوله تعالى: (لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنْزِفُونَ) يقولون قدم الظرف تعريضا بخمور الدنيا وأنَّ المعنى على الخصوص لا تغتال العقول اغتيال خمور الدنيا..."⁵¹.

ويظهر أن السكاكي لم ينفصل عنده الطرح البلاغي عن الطرح النحوي، بل إننا نلاحظهما متداخلين مما يعكس تأثيره الكبير بالنحو وقواعده وروحه أيضا، فكأنَّ قِيم النحو وضوابطه قد غدت بصورة غير معلنة قيما جمالية وفنية على المبدع مراعاتها وإلا يكون قد وقع تحت طائلة مخالفة قواعد البلاغة والفصاحة، وهذا الأمر له دلالات عديدة منها:

- أن النحو العربي قد استمر قويَّ الأثر على الدراسات البلاغية حتى زمن استوائها ونضجها تحديدا على يد السكاكي .

- أن معظم الدارسين العرب ومنهم السكاكي لا يفرّقون كثيرا بين معيار الصحة والسلامة في التراكيب اللغوية، وبين معايير الجودة والحسن والجمال التي ينبغي أن تتحقق في الإبداع الأدبي.

وقد لاحظنا عند كل من سيبويه وابن جني في بدايات الدراسة أن القاعدة النحوية عندهما لا تستبعد معايير الجودة في التعبير، ويمكن القول أن ما يبدو إهمالا من السكاكي للجوانب الفنية والجوانب الجمالية ليس صحيحا، فالمعايير النحوية إن صح التعبير هي في الوقت نفسه معايير بلاغية تحكم التعبير وتحدد جودته وسموه وجماله في نهاية المطاف.

49 / المصدر نفسه، ص 323 و 324

50 / المصدر نفسه، ص 339

51 / المصدر نفسه، ص 341

ومع الرؤية النحوية التي طبعت معالجة السكاكي لموضوع التقديم والتأخير، إلا أننا نلاحظ أنه يشير إلى أن مدار الحسن فيه هو في مراعاة مقتضى الحال - كما تبين في نص له سابق - واستخدام التقديم والتأخير لا يخرج عن هذه القاعدة، فعندما يتحدث عن المسند إليه يقرر أنه يجب مراعاة حسن الكلام فضلا عن الاعتبارات النحوية: "... فتعرف أيما حال يقتضي طي ذكره، وأيما حال يقتضي خلاف ذلك... وأيما حال يقتضي تقديمه على المسند، وأيما حال يقتضي تأخيره عنه..."⁵².

وينبغي ملاحظة أن كلام السكاكي عن التقديم والتأخير قد تميز بقدر من الغموض، وذلك يرجع بشكل واضح إلى لغته التي اصطبغت بالنزعة الفلسفية والمنطقية من جهة، وإلى تناول هذا الموضوع بصورة متداخلة مع موضوعات أخرى كالحذف والذكر والتعريف والتكرير... كما أنه - وهو يعالج أحوال المسند والمسند إليه - لم يفصل بين الجانب البلاغي والجانب النحوي في موضوع التقديم والتأخير.

وبالإجمال فإن السكاكي في موضوع جماليات التقديم والتأخير قد اكتفى بالحديث عن بعض الاعتبارات التي تستدعي تقديم أحد عناصر الجملة وتأخير آخر، وكذلك الأغراض التي تتحقق أو تراعى في ذلك، فاخفاء - أو على الأقل - ضعف الاهتمام بالجانب الجمالي المترتب عن هذه الظاهرة يرجع إلى أن السكاكي كان مهتما بجانبَي التقعيد والتعليم في البلاغة، كما قد يكون راجعا إلى ما ذكرته من أن البعد النحوي ظل مهيمنا عليه إلى درجة أنه أصبح معيارا جماليا يُحتكم إليه في تقويم التعابير والأساليب والنصوص .

وقد سار على منهج السكاكي أكثر البلاغيين، ومنهم: القزويني والتفتراني والسبكي والسيوطي وغيرهم، وذلك من حيث تقنين البلاغة ووضع ضوابط لمباحثها، فغدا موضوع كالتقديم والتأخير مُحدّد المفهوم والوظيفة والمقاصد والأغراض، وإن كان هناك تغيير في هذا المبحث فهو في التفاصيل والتطبيقات، أما من حيث الجوهر فلا يوجد هناك تغيير .

الخاتمة :

يمكن القول في نهاية هذه الدراسة أن موضوع (التقديم والتأخير) على ما أولي من أهمية من قبل الدارسين على مختلف أصنافهم إلا أن هناك جوانب لم تأخذ حقها الكامل من الاهتمام والبحث، ومن ذلك الجانب الجمالي الذي نظن أنه يشكل لبّ هذه الظاهرة اللغوية وسر حضورها الكثيف في النصوص العربية الفصيحة، إلا أنّ الدرس البلاغي وقبله الدرس النحوي قد سجلا علامات بارزة ومحطات واضحة تمّ فيها الكشف عن الملامح والخصائص الجمالية التي تمنحها هذه الظاهرة للتعبير الأدبي. وقد ظهر في الدراسة خلاصة رأي سيبويه وابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، وابن الأثير، والسكاكي.

ويمكن استخلاص النتائج الآتية:

- إن بحث موضوع التقديم والتأخير من الناحية النحوية وإن كان الهدف منه تقنين الظاهرة وضبط حالاتها إلا أن ذلك لم يمنع حضور البعدين الجمالي والفني.

- إن الأثر النحوي ظل ساريا في الدرس البلاغي لظاهرة التقديم والتأخير، وشمل ذلك الجانب الجمالي نفسه من الموضوع، حتى أصبح من الصعب أحيانا التمييز بين ما إذا كان البحث بلاغيا أم نحويا على الرغم من وضوح الفرق بين علمي النحو والبلاغة.

- أن جماليات التقديم والتأخير عند عبد القاهر مرتبطة بنظريته في (النظم) الذي يتوخى العلاقات النحوية، فلا مزيّة ولا جمال للكلام إذا لم يرد على الصورة التي تقتضيها معاني النحو.
- أنّ جماليات التقديم والتأخير عند ابن الأثير تعتمد مراعاة النظم السجعي، وائتلاف الكلام وانسجামه.

- أنّ جماليات التقديم والتأخير عند السكاكي تعتمد مراعاة الاعتبارات التي تقتضي ورود العبارة وفقا لها على اعتبار أن البلاغة هي مراعاة مقتضى الحال.

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم

- 1- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، تح: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للنشر والطباعة، القاهرة (د.ت).
- 2 - ابن جني، الخصائص، ج2، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت (د.ت).
- 3 - ابن عصفور الاشبيلي، ضرائر الشعر، تح: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، ط1، القاهرة، 1980م .
- 4 - ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج1، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، ط 20، القاهرة، 1980م.
- 5 - الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م .

- 6 - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب (د.ت).
- 7 - حسن عباس، النحو الوافي، ج21، دار المعارف، ط3، مصر، (د.ت).
- 8 - حماسة محمد عبد اللطيف، اللغة وبناء الشعر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2001م.
- 9 - الرضي، شرح كافية ابن الحاجب، ج1، تح: يحي بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، السعودية، 1996م.
- 10 - السكاكي، مفاتيح العلوم، تح: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 2000م.
- 11 - سيبويه، الكتاب، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.
- 12 - ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.ت).
- 13- عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، 1994م.
- 14 — عبد العزيز عبده، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، منشورات الكتاب والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط1، 1982م.
- 15/ فيصل السيد، جماليات اللغة بين القاعدة والاستعمال، منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ت.
- 16 - القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008 م.

17 – هـماني عبد النبي، جمالية تحليل الخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2014م .

18 – ويس أحمد محمد، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، د.ت